

كتاب مجلة " كلمة حق " (٢)
هدية العدد (١٣) من مجلة " كلمة حق " أغسطس - ٢٠١٨

مختصر كتاب

تشريح الثورة

كرين برينتن

– المحتوى –

هذه السلسلة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

لو أفنى الإنسان عمره في قراءة ما تكتبه الأقلام لم يبلغ أن ينهي منها إلا قدراً ضئيلاً، فالعقول لا تتوقف عن الإنتاج والمطابع لا تتوقف عن الهدير، وفي عصرنا هذا كاد الناس كلهم أن يكونوا أصحاب أقلام ولهم كتابات، فما عليك إلا أن يكون لك حساب على موقع تواصل اجتماعي فيكون قد صار لك منبر عام تكتب فيه.

ومن بين الكثير من الغثِّ قليلٌ من السمين، فأودية العقول كثيرة ونتاج الفلاسفة كغابة ضخمة متشابكة.. فالعلم النافع بالنسبة لبحور الأفكار كالدرر واليواقيت في أعماق البحار.

والعلم الذي تحتاجه أمة مهزومة مستضعفة تريد أن تنهض ليس كالعلم الذي تحتاجه الأمم في حال رفاهيتها ورخائها.. فإن أمتنا أحوج إلى فهم الدين الصافي الواضح كما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهي بحاجة إلى فهم الواقع المعاصر لتُحسِن إصلاحه بما لديها من الدين، وتحتاج إلى علوم النهوض وبناء الأمم أكثر من حاجتها إلى علوم الترف والزينة والزخارف. وفي طليعة علوم النهوض: فهم الدين والسياسة والتاريخ والعلوم الأمنية والعسكرية.. فالمكتوب في هذه الأبواب أولى بالعناية والاطلاع والدراسة من غيره.

وقد أنعم الله علينا في مجلة كلمة حق " بفكرة أن نقدم مع كل عدد كتابا كهدية، ونحن بين أن نستخرجه من كتاب مهم، أو أن يكون تلخيصا لكتاب مهم، أو أن يكون ترجمة لتقرير مهم.. وهكذا، نختاره بحسب ما نقدِّر أهمية الاطلاع عليه.

ونرجو أن يعيننا القراء الكرام بترشيحاتهم ومجهوداتهم، فالباب مفتوح لكل مجهود..

نسأل الله أن يكون علما نافعا وعملا صالحا خالصا لوجهه الكريم

مجلة
كلمة حق

الفصل الأول

الثورة من الكلمات التي تتصف بالغموض، الثورة الفرنسية الكبرى، الثورة الأمريكية، ثورة اجتماعية، ثورة في تفكيرنا، أو في صناعة السيارات، تكاد القائمة تكون غير محدودة، وفي الواقع كادت الثورة في نهاية طيف معانيها في الاستعمال الشائع أن تكون مرادفًا تأكيديًّا لكلمة "تغيير"، ربما مع الإيحاء بأن التغيير مفاجئ أو لافت للنظر.

إن هدفنا في تلك الدراسة تثبيت وجود حالات تنسيق أولية مؤكدة تلاحظ في مسار الثورات الأربع الناجحة في الدول الحديثة: الثورة الإنجليزية في العقد الخامس من القرن السابع عشر، الثورة الأمريكية، الثورة الفرنسية الكبرى، الثورة الحديثة في روسيا.

الفصل الثاني

لا جدل أنه في كل المجتمعات الأربعة التي ندرسها في هذا الكتاب شهدت السنوات التي سبقت نشوب الثورة مشاكل اقتصادية أو مالية خطيرة من نوع خاص.

غير أنه في كل تلك المجتمعات كانت الحكومة هي التي تواجه مشاكل مالية وليس المجتمعات نفسها، ولكي نضع المسألة على نحو سلبي لم تنشب ثوراتنا مع اقتصاديات متدهورة أو في مجتمعات تشهد بؤسًا أو كسادًا اقتصاديًّا واسع الانتشار وطويل الأمد، ولن تجد في مجتمعات العهد البائد أي شيء يشبه الأزمة الاقتصادية الواسعة النطاق، ومن الطبيعي في حالة معينة أن المعيار الذي يقاس الفقر أو الكساد وفقًا له يجب أن يكون مستوى المعيشة المقبول إلى حد ما لمجموعة معينة في وقت معين، إن ما كان يرضي فلاحًا إنجليزيًّا عام 0491 يعني البؤس والفاقة لعامل زراعي إنجليزي عام 5691.

كانت فرنسا عام 9871 مثالاً لافتًا لمجتمع ثري ذي حكومة فقيرة الموارد، ويبدو واضحًا أن سنة 9871 كانت سنة سيئة من بعض النواحي، غير أنها لم تكن سنة الدرك الأسفل في النشاط الاقتصادي كما كان عام 2391 في الولايات المتحدة، غير أن المفهوم يبقى بأن الرجال الذين صنعوا الثورة الفرنسية لا بد أن يكونوا قد عانوا على نحو ما من الحرمان الاقتصادي.

إذًا من الواضح أن ثوراتنا لم تنشب في مجتمعات منتكسة اقتصاديًّا، وهذا لا يعني بطبيعة الحال أنها نشبت في مجتمعات متقدمة اقتصاديًّا، ولا يعني هذا طبعًا أنه كانت للمجموعات في تلك المجتمعات مظالم ذات طابع اقتصادي بخاصة، تبرز بؤرتان رئيسيتان للدوافع الاقتصادية للسخط:

الأولى والأقل أهمية

هي البؤس الفعلي لمجموعات معينة في مجتمع ما، ولا ريب في كل مجتمعاتنا حتى في أميركا كانت هنالك مجموعة شبه هامشية تضم الفقراء يكون إطلاقهم من أشكال معينة من الضغط سمة مهمة للغاية للثورة نفسها، أما في دراسة العلامات الأولية للثورة فإن هؤلاء الفقراء غير مهمين جدًّا.

الأمر الثاني والأكثر أهمية

هو وجود شعور بين مجموعة ما أو مجموعات بأن الظروف السائدة تقيد أو تعيق نشاطها الاقتصادي.

الخلاصة: إذ نفحص الحياة الاقتصادية في تلك المجتمعات في السنوات التي سبقت الثورة نلاحظ

أولاً- أن هذه المجتمعات كانت مزدهرة عمومًا،

وثانيًا: أن حكوماتها كانت تفتقر إلى الأموال على نحو مزمن، أي: أكثر مما تكون عليه معظم الحكومات،

وثالثًا: أن مجموعة معينة كانت تشعر أن السياسات الحكومية تعادي مصالحها الاقتصادية المعينة،

رابعًا: باستثناء روسيا فإن المصالح الاقتصادية الطبقية ليست متقدمة على نحو متقدم في الدعاية كدافع لمحاولة قلب الترتيبات السياسية والاجتماعية القائمة.

وإذا تحولنا عن ضغوط وأعباء الحياة الاقتصادية إلى الآمال الفعلية للجهاز الحكومي نجد أنه توجد درجات من عدم الكفاءة الحكومية، ودرجات من الصبر من جانب المحكومين، ويبدو أن الحكومات في المجتمعات الأربعة موضوع البحث كانت غير كفء نسبيًّا، وكان المحكومون نافدي الصبر نسبيًّا.

وفي الواقع أن الإفلاس الوشيك لحكومة ما في مجتمع مزدهر قد يعتبر دليلاً مسبقًا جيدًا على عدم كفاءتها، على الأقل في الماضي عندما كانت الحكومات تتولى أداء خدمات اجتماعية قليلة. كانت فرنسا مثالاً لافتًا لمجتمع لم تعد حكومته تعمل جيدًا، وطوال عدة أجيال كان الملوك ووزراؤهم يكافحون الميول الخاصة للأقاليم للتخلص من سيطرة باريس بإقامة سلسلة من مؤسسات الحكم المركزي.

انتقال ولاء المفكرين

مجموعات الضغط أي : الرجال والنساء في جمعيات ذات أهداف خاصة تمارس كل أنواع الضغط من: الدعاية وممارسة التأثير إلى الإرهاب من أجل تحقيق أهدافها.

لا يوجد أي اختبار بسيط لتحديد متى وفي أي ظروف قد يعد وجود مجموعات الضغط علامة على عدم استقرار سياسي، إلا أن عقود ما قبل الثورة في المجتمعات الأربعة تظهر شدة الجهود من جانب مجموعات الضغط، وهي الجهود الموجهة على نحو متزايد بمرور الوقت نحو التغيير الجذري للحكومة القائمة، وفي واقع الحال تبدأ بعض المجموعات بتجاوز ممارسة التأثير والدعاية إلى التخطيط وتنظيم العمل المباشر، أو على الأقل الحلول محل الحكومة على نحو مثير، وهذه بدايات لما عرف لاحقًا بـ: الحكومة غير الشرعية.

تولت لجان التجار في أمريكا التي نظمت لمقاومة إجراءات السيطرة الاستعمارية بالقدر الكبير من العمل الهادئ التي تقوم به مجموعات الضغط الحديثة من الدعاية المباشرة إلى تنظيم مظاهرات شعبية وتعاون بين المستعمرات، ومن خلال القرارات والمؤتمرات وما شابه ذلك.

أظهرت جهود كوشان (مؤرخ الثورة الفرنسية) في فرنسا كيف أن ما أطلق عليه جمعيات الفكر، وهي مجموعات تجتمع لمناقشة التأثير الكبير لحركة التنوير قد تحولت تدريجيًّا إلى الإثارة السياسية، وساعدت -أخيرًا- في توجيه الانتخابات إلى مجلس الطبقات العامة عام 9871، ويقر مؤرخو الثورة الفرنسية أنه كان للماسونية دور في الإعداد للثورة.

وفي روسيا ازدهرت زمنًا طويلاً مجموعات منظمة من كل درجات العداء للأوضاع كما كانت، عبر المؤمنون بالعدمية والفوضوية والاشتراكيون من كل الأنواع والليبراليون وغربيو الثقافة عن أنفسهم بوسائل مختلفة من رمي القنابل إلى التصويت في انتخابات مجلس الدوما.

إنكلترا هنا حالة أقل وضوحًا، وعلى الرغم من ذلك ثمة إشارات لا لبس فيها إلى وجود المعارضة المنظمة للتجار وبعض أفراد الطبقة الأرستقراطية للإجراءات مثل ضريبة السفن، وكانت الأغلبية البرلمانية التي عارضت الملك تشارلز عقب فترة الحكم الشخصي نتاج مجموعات الضغط الأولى.

ولا بد من القول: إن بعض مجموعات الضغط هذه، أي: لجان التجار الأمريكية وجمعيات الفكر الفرنسية

والماسونيين، لم تكن لتعترف في ذروة نشاطها أنها تعمل من أجل القيام بالثورة، وحتمًا ليس القيام بثورة عنيفة.

نتناول هنا أحد أعراض الثورة والتي تعرف بـ "تحول ولاء المفكرين"، إننا نصف المفكرين في هذا السياق بدون قلق مفرط بسبب التزمت بأنهم الكتاب والفنانون والموسيقيون والممثلون والمدرسون والوعاظ.

يلتزم الكتاب والمدرسون والوعاظ بتبني موقف نقدي نحو الروتين اليومي للشؤون البشرية، وبالنظر لافتقارهم إلى خبرة العمل تحت عبء المسؤولية فإنهم لا يكتشفون مدى قلة إمكانية أو فعالية العمل الجديد عادة، إن المثقف الذي يشعر بالرضا عن العالم مثل رضاه عن نفسه، أو على الأقل عن أفكاره ومثله ليس مثقفًا.

في مجتمع غير مستقر على نحو ملحوظ هناك حتمًا مثقفون أكثر يهاجمون المؤسسات القائمة ويرغبون في حدوث تحول كبير في المجتمع والأعمال والحكومة.

في إنجلترا كان الكثير من المفكرين في العصر الفكتوري على خلاف فيما بينهم، ولم يوحدهم سوى البغض لبيئتهم.

وإذا تأملنا تلك المجموعة الشهيرة في فرنسا في القرن الثامن عشر التي كانت تقف في قلب حركة التنوير، يتكون لدى المرء انطباع بوجود عدد هائل من المثقفين الكبار والصغار، وكلهم يبحثون مواضيع سياسية وسوسيولوجية، وكلهم مقتنعون أن العالم -وخصوصًا فرنسا- في حاجة إلى التغيير من التفاصيل الصغيرة إلى المبادئ الأكثر أخلاقية وقانونية.

روسيا كذلك مثال واضح لنقل ولاء المثقفين، وهنالك حتمًا أكثر من الدعاية السياسية في سلسلة الروائيين الذين جعلوا الأدب الروسي جزءًا من ثقافتنا جميعًا، إلا أن هنالك -بلا شك- نقدًا سياسيًّا واجتماعيًّا لروسيا القيصرية.

الطبقات والعداوات الاجتماعية

رعت مجموعات معينة في المجتمعات الأربعة في الأنظمة القديمة مشاعر الكراهية الممتزجة

بالاحتقار نحو المجتمعات الأخرى، وإذا تجنبنا المعاني الاقتصادية للمصطلح يمكننا وصف هذه المجموعات بالطبقات، وإذا أدركنا أن الصراع لم يكن مجرد صراع بين طبقتين متنافستين، الإقطاعية ضد البرجوازية، أو البرجوازية ضد البرولتاريا، يمكننا حتى الحديث عن صراعات الطبقات، هذا النوع من الصراع في شكل أو بآخر يبدو مستوطنًا في أكثر المجتمعات الغربية استقرارًا، غير أنه صراع يجري عادة بموجب قواعد، أو على الأقل بدون عنف ظاهري.

لذا يجب هنا -أيضًا- ألا نفترض للمجتمع العادي الذي لا نستطيع أن نقارن به مجتمعاتنا ما قبل الثورة، أي: الجمع بين الأسد والحمل، ربما يجب حقًّا أن نفترض للعلاقة بين الطبقة صاحبة الامتيازات أو العليا أو الحاكمة وبين بقية الناس علاقة تسمى "محاكاة" أو مشاطرة المثل، والنظر من المجموعات الدنيا نحو المجموعات العليا.

هذه الصراعات الطبقية ليست بسيطة بتاتًا، وثمة مجموعات داخل المجموعات وتيارات داخل التيارات.

أولاً: يبدو أن ما يمكن تسميته الطبقة الحاكمة في كل المجتمعات الأربعة منقسمة وغير فعالة، ويبدو أن تلك الطبقات لم تنجح في أداء مهامها، غير أن طبقة من هذا القبيل يجب ألا تتردد في استخدام القوة للمحافظة على نفسها.

عندما يشرع أعضاء كثيرون ومؤثرون في طبقة من هذا القبيل في الاعتقاد أنهم يمسكون بالسلطة ظلمًا أو أن كل الناس إخوة متساوون في نظر العدل الأبدي، أو أن المعتقدات التي تلقوا نشأتهم عليها سخيفة، أو أنه "بعدنا فليكن الطوفان" ليس من المرجح أن يقاوموا بنجاح أي هجمات خطيرة على مركزهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

تظهر الطبقات التي تلي الحاكمة مباشرة في الهيكل الاجتماعي في إنجلترا وفرنسا وروسيا وإلى درجة أقل في أميركا بغضًا أكثر من المعتاد لمن هم أعلى منهم.

إن وجود عداوات بين الطبقات حقيقة مهما كان من مصلحة الطبقة أو الطبقات الحاكمة إنكارها، إلا أنه في مجتمع عادي توضع العداوات المختلفة التي هي ليست اقتصادية صرفًا، في مرتبة أقل من مشاغل أخرى، أوسع وأضيق تتخطاها صراعات أخرى وتخضعها مصالح أخرى.

الفصل الثالث

المراحل الأولى من الثورة

ثمة مناجاة شهيرة لفيجارو في مسرحية زواج فيجارو التي عرضت في باريس أول مرة عام 4871، فيجارو نفسه هو الشاب القادر الوحيد الذي يتعرض للقمع ظلمًا بسبب ضغط نظام اجتماعي قائم على الامتيازات، كانت الأسر الفرنسية تتوجه إلى باريس خصيصًا لمشاهدة المسرحية وسماع أفضل الظرف الفرنسي الموجه ضد حكومة شريرة.

شهدت السنوات التي سبقت مباشرة اندلاع الثورة فعليًّا تصعيدًا للاحتجاجات ضد طغيان الحكومة، وسيلاً من المنشورات والمسرحيات والخطب وتفجر النشاط من جانب مجموعات الضغط المعنية، وفي مواجهة ذلك كله لم تكن الحكومة في مستوى السمعة التي سعى المعارضون إلى إضفائها عليها، وربما فشلت المحاولات الاستبدادية لقمع المعارضة المتمردة؛ لأن المعارضة كانت قوية للغاية ومصممة وفعالة، أو ربما فشلت محاولات الحكومة؛ لأن الحماسة والفعالية كانت تعوز وكلاء الحكومة، وكسبت المعارضة أكثر من نصفهم، وتبقى الحقيقة أن المحاولات تفشل حقًّا.

حتى فترة الحكم الشخصي لتشارلز الأول التي سبقت الثورة الإنجليزية لم تكن هادئة وناجحة كما بدت على السطح، وهرب الكثير من الكهنة المتطهرين من سعي كبير الأساقفة المعارض لهم إلى طردهم من الكنيسة الرسمية.

لا نجد في المجتمعات الثلاثة الهدوء الذي يسبق العاصفة، لا نجد تزايدًا مطردًا في الاضطراب الثوري، وفي أمريكا لم تكد أية مستعمرة تنجو من شكل ما من الشغب، كما شهدت المستعمرات نمو الاهتياج على نحو مستمر من خلال لجان التجار ولجان المراسلة وأبناء الحرية والمجموعات المشابهة، أما في روسيا فكان المجتمع واعيًا على نحو لافت لاحتمالات الثورة.

التلقائية أم التخطيط

من خلال رؤية الخطوات الأولى في الثورات الأربع لا بد أن يكون واضحًا أن الفروق في نظر المؤرخ السردي في الثورات الأربع لافتة للنظر: اندلعت الثورة الإنجليزية في إحدى أقدم وأرسخ الهيئات البرلمانية، ونشبت الثورة الأمريكية على نحو رئيسي في نيو إنكلاند بين ناس تعودوا على اجتماعات مجالس المدن والمستعمرات، وتطورت الثورة الفرنسية من اجتماعات هيئة تشريعية بلا سوابق مباشرة أعضاؤها رجال غير معتادين على الحياة البرلمانية، وبدأت الثورة الروسية في أعمال شغب في شوارع العاصمة، واستمرت بدون الاستفادة من أية هيئة برلمانية.

وهنا نطرح سؤالاً: ما هو الدليل لدينا هنا أننا نتعامل مع عملية لها مراحل محددة ومشتركة؟ هل تقع هذه الخطوات الأولى في الثورة في ظل ظروف متشابهة من الناحية السوسيولوجية حتى لو أنها غير متشابهة دراماتيكيًّا؟

أحد الاتساقات واضح، حاولت الحكومات القائمة في كل المجتمعات الأربعة جمع الأموال من الناس الذين رفضوا الدفع، وبدأت ثلاث ثورات بين من عارضوا ضرائب معينة ونظموا احتجاجات عليها ووصلوا أخيرًا إلى نقطة التهييج من أجل إسقاط الحكومة القائمة واستبدالها.

ثمة تناسق ثان، الأحداث في هذه المرحلة من الخطوات الأولى للثورة تبرز طرفين متعارضين، ويمكننا تسمية هذين الفريقين على نحو وجيز: فريق العهد القديم وفريق الثورة، وعلاوة على ذلك يفوز فريق الثورة في نهاية فترة المراحل الأولى.

إن مرور الثورات الأربع عبر مراحل مبكرة كهذه يتبلور فيها التعارض بين القديم والجديد على نحو مثير، وينال الجديد انتصارًا واضحًا للغاية بحيث لا يمكن للمؤرخ السردي الأقدم طرازًا إنكاره، إلا أنه لا يزال هناك خلاف مستمر حول أسباب تطور هذه المرحلة بين الكتاب الذين يهتمون بتلك الأمور من مثل المؤرخين والمنظرين والسياسيين وعلماء الاجتماع وكتاب المقالات، جوهر الخلاف مسألة يجب حسمها قبل أن يكون أي شيء من قبيل سوسيولوجيا الثورات ممكنًا، وعلى نحو وجيز

يرى فريق أن الأمة المتحدة الناهضة بقوتها وفعاليتها تقبل هذه الخطوات الأولى المجيدة في الثورة تلقائيًّا تقريبًا لصد مضطهديها، بينما يرى الفريق الآخر أن هذه الخطوات الأولى هي حصيلة سلسلة من المؤمرات المتشابكة التي تشرع بها مجموعات من الساخطين المتصفين بالتصميم، يتبنى الرأي الأول عمومًا الأشخاص المؤيدون لثورة ما، ويتبنى الرأي الثاني الأشخاص المعادون لها، أو على الأقل المخلصون لذكرى النظام القديم.

يعزو الثوريون المنتصرون نجاحهم إلى ثورة الكثيرين ضد الطغيان الذي لا يحتمل، ويعزو الأنصار المهزومون للنظام القديم فشلهم إلى التكتيكات عديمة الضمير لأقلية من الأشرار الماكرين، لم يوضع أي من التفسيرين بوصفه تفسيرًا موضوعيًّا للحقائق؛ إذ يهدف كلاهما إلى إرضاء المشاعر البشرية.

دور القوة

ثمة اتساق نهائي يمكن تمييزه في هذه المراحل الأولى في الثورات الأربع، وهو الأوضح والأهم، هنالك في كل ثورة نقط أو عدة نقاط؛ حيث تواجه السلطة المنصبة تحدي أعمال غير قانونية يقوم بها الثوريون، وفي تلك الحالات يكون الرد الروتيني لأية سلطة اللجوء إلى القوة أو الشرطة أو الجيش، وكان رد السلطات من هذا القبيل، غير أنها فعلت ذلك في كل حالة بفشل لافت للنظر، وأثبت المسؤولون في الطبقة الحاكمة عن تلك الردود في كل المجتمعات الأربعة عجزهم على نحو بارز عن الاستخدام المناسب للقوة.

لا يرجح أن هذا الفشل اللافت من جانب الحكام في استخدام القوة بنجاح حالة منعزلة وظاهرة تمثل صدفة، ويبدو في الواقع أنه مرتبط ارتباطًا وثيقًا بعدم الكفاءة والفشل من جانب الطبقة الحاكمة، لقد قوضت السنوات الطويلة من التدهور انضباط الجنود وزودت المعاملة السيئة للجنود قضية مشتركة مع المدنيين، وفقد الكثير من أبرع الضباط الإيمان في المزايا العسكرية التقليدية والحمقاء، ليس هنالك قيادة تنسيق لائقة ولا رغبة في العمل، ويمكن أن نشير في شكل تجريبي وافتراضي من التعميم أنه لم تسقط أية حكومة أمام المهاجمين إلا بعد فقد السيطرة على القوات المسلحة أو عدم القدرة على استخدامها على نحو فعال.

شهر العسل

تنتهي المرحلة الأولى من الثورة في كل من المجتمعات الأربعة بانتصار الثوريين بعد سفك الدماء، ودحر النظام القديم على نحو سهل للغاية، وأصبح الطريق مفتوحًا أمام التجديد الذي كان الناس يتحدثون عنه ويأملون حدوثه.

غير أن فترة شهر العسل في باريس كانت عابرة، وكانت أقصر في روسيا، وفي إنجلترا وأمريكا لم تكن واضحة ومحددة جدًّا، أصبحت المعارضة السابقة هي الحكومة الآن، وهي تواجه مجموعة جديدة من المشاكل، وعندما تشرع في العمل الفعلي في معالجة تلك المشاكل سرعان ما ينتهي شهر العسل.

الفصل الرابع

أنواع الثوريين

الأرجح أن لكلمة ثوري معاني بغيضة على مستوى صحافة اليمين المتطرف، يبدو الثوري قذرًا وهائجًا كثير الصخب مغرمًا بالخطابة، ومتآمرًا ضد الحكومة ومستعدًّا للعنف إلا أنه يخشاه، وتنشأ الصورة الأكثر إيجابية للثوري في عقول أخرى، ويرى بعض كتاب البوليتاريا أن الثوري عامل فولاذ قوي عريض لم تفسده الأكاذيب التي تدعوها البرجوازية.

محاولة إجراء تصنيف موضوعي للثوريين تتطلب بياناته المعقدة عنهم، والجدير بالذكر أنه لما كانت المجموعة المتسمة بالانتقاص أكثر شيوعًا في البلاد الأربعة فإن هذا لا يؤكد بتاتًا فكرة كون ثوريينا ذوي سمعة رديئة وكثيري الصخب ورماة قنابل فاشيلن، وإذا أضفنا من خطوا الخطوات الأولى في الثورة علاوة على من حكموا في عهد الإرهاب يصبح النوع أقل بساطة، ويصبح في الحقيقة عدة أنواع.

إذا تناولنا قائمة عشوائية بالأسماء التي كان لها دور في تلك البلاد سنجد أنهم كلهم ثوريون، وكلهم عارضوا السلطة باللجوء إلى القوة، وسنجد أن منهم نبلاء وتجارًا وصحفيين، وأساتذة تاريخ ومحامين، وزعماء سياسين، كما سنجد أثرياء وفقراء، وسنجد أن منهم رجالاً طيبين وآخرين أشرار حسب المعايير.

لا شك أن هذا سيساعدنا على التمييز بين من يهيمنون في المراحل الأولى من الثورة وهم المعتدلون عمومًا وبين من يسيطرون في مرحلة الأزمة أو المتطرفون.

الوضع الاقتصادي والاجتماعي

عامة الناس

من أكثر الطرق فائدة في تناول مشكلة أعضاء الحركات الثورية استخدام المؤشرات الموضوعية نسبيًّا للوضع الاقتصادي والاجتماعي لمن يشاركون في الانتفاضة، وفي السجلات الباقية لمراكز العمل الثوري في تلك الثورات لدينا عدد كبير من قوائم الأعضاء، ناقصة طبعًا غير أنها قوائم.

ويمكن عمومًا التوصل إلى تقدير تقريبي للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للثوريين، لنجد أنهم لم يكونوا عمومًا فاشلين في بيئتهم السابقة، بل مثلوا السكان الذين هم أقدر وأكثر طموحًا وأنجح في مدنهم، وكانت قوة الحركة الثورية في المدى البعيد تمثلت في الناس العاديين وليس في الدهماء أو الغوغاء، وكانت تضم لفيفًا من مختلف طبقات المجتمع، حتى في انتفاضة الطبقات الكادحة وجدنا أنهم لا يمثلون عمومًا حثالة المجتمع.

الحالة الاقتصادية والاجتماعية

الزعماء

الزعماء هم من حيث الجوهر من الطبقة الاجتماعية للأعضاء العاديين، وربما كان هناك بين الزعماء في عهد الإرهاب، رجال أكثر بدوا حتمًا فاشلين، أو على الأقل على تناقض مع بيئتهم، إلا أن نسبتهم غير لافتة للنظر.

وضمت قائمة الزعماء مجموعات متنوعة شملت نبلاء ومحامين، وعلماء وصحفيين وجامعيين، وفلاحين وعمالاً.

وفي فرنسا كانت قائمة الزعماء تضم نبلاء مثل ابن عم الملك، وفي إنجلترا كانت الأصول الاجتماعية للزعماء المعتدلين توضح أنهم بين الأعلى في البلاد.
لا يمكن تصنيف الأعضاء العاديين وزعماء المجموعات الثورية النشيطة بأنهم من مجموعة اجتماعية أو اقتصادية واحدة، وهم حتى ليسوا في أعمار شابة على نحو لافت ومبكر النضج، بل كان هؤلاء الزعماء في منتصف العمر عادة في الثلاثينيات والأربعينيات.

الشخصية والترتيب

يمكن أن نبدأ بالسيد الثوري، المخدوع الأرفع مقامًا، الرجل المولود لكي يبلغ القمة، إلا أنه غير مستعد على نحو متحرف للقاء هناك، إنه ليس أبدًا شخصًا بسيطًا ويدبر أحيانًا الجمع بين عدد من السمات الثورية، ولا بد من الاعتراف أنه بالنظر لوجود الكثير من هؤلاء المخدوعين الأرفع مقامًا في المجتمعات الأربعة فإن كراهية طرائق طبقتهم تحركها على نحو جزئي عدم قدرتهم على

النجاح في نشاطات معينة تقابل بالفخر في تلك الطبقة.

إلا أن من السخرية -ولذا من المنافي للروح العلمية- إنكار أن ما يتعين علينا تسميته بالمثالية المخلصة يدفع الكثير من هؤلاء الأعلى منزلة، وتبدو مجموعتهم الاجتماعية في نظرهم منغمسة في الملذات أو مملة أو قاسية أو متحجرة القلب، وهم يرون إمكانيات عالم جديد، وهم متأثرون بمؤلفات المثقفين الذين شرعوا بالتخلي عن النظام الراسخ، كما أنهم يشرعون بحدة إدراك الفروق بينهم وبين آبائهم وأجدادهم، إنهم جيل في ثورة.

يتخلى آخرون عن طبقتهم وينضمون إلى الثورة من أجل السبب الحقير، ولو أنه المفيد اجتماعيًّا أحيانًا، بحيث يعتقدون أن العلامات تشير إلى انتصار الثورة، وهم يتسمون بالحرص والوعي ورغبتهم الوحيدة التمسك بمركز سام وفي بحبوحة، ومن لا يتمسكون بالأفكار المجردة المتعلقة بما هو صحيح أو خطأ، أو الولاء للعرش والتحول لاحقًا، وطبعًا هناك في المراحل الأولى من الثورات حتى الروسية الكثير من الأثرياء وذوي النفوذ بدون ذكاء أو غباء غير عادي انضموا إلى الثورة؛ لأنها كانت رائجة وناجحة كما يبدو، وكثير من هؤلاء لم تكن لديهم سلطة سياسية مباشرة، لذا كانوا يشعرون بإغراء احتمال نيل السلطة.

وإذا تركنا أصحاب المنزلة الفضلى، من ينتمون بالولادة أو التنشئة إلى الطبقات الحاكمة، ومع ذلك يقفون إلى جانب الثورة، سنجد التنويع الواسع جدًّا فيما يجب أن ندعوها الطبيعة البشرية، وسنجد حمقى وصعاليك ومثاليين وثوريين محترفين ودبلوماسيين ومجاذيب وجبناء وأبطال.

ترفع الثورة أحيانًا إلى القمة رجالاً ذوي قدرات عملية للغاية، رجالاً من النوع الذي لابد أن يقر حتى المحافظون الحذرون والمتصفون بالعناد بأنه جدير بالاحترام.

الفصل الخامس

حكم المعتدلين

كان شهر العسل في تلك الثورات قصيرًا، سرعان ما بدأت بعد سقوط النظام القديم علامات واضحة على أن المنتصرين لم يكونوا مجمعين على ما يفعلونه لإعادة تشكيل البلاد كما دلت خطب واحتفالات الانتصار، كان الذين تولوا جهاز الحكم مباشرة في المجتمعات الأربعة كافة رجالاً من نوع يدعون عادة بالمعتدلين، ويمثلون الرجال الأكثر ثراء والأشهر ومن يولون مراتب أعلى في المعارضة القديمة للحكومة.

ما إن تولى المعتدلون الحكم حتى تبين أنهم أقل تجانسًا وانضباطًا مما بدا عندما كانوا في صفوف المعارضة، وواجهوا المهمة العسيرة بإصلاح المؤسسات القائمة أو وضع دستور جديد والاهتمام في الوقت نفسه بمتطلبات الحكم العادية، وسرعان ما واجهوا أعداء مسلحين، ووجدوا أنفسهم مشاركين في حرب أجنبية أو أهلية أو كليهما.

وجدوا ضدهم مجموعة قوية ومتشددة أصرت على أن المعتدلين كانوا يحاولون وقف الثورة وأنهم قد خانوها، وأنهم سيئون مثل الحكام في العهد القديم.
حدث عرض للقوة بين المعتدلين والمتطرفين وهزم المعتدلون، وهربوا إلى المنفى وأودعوا السجون في نهاية الأمر ليواجهوا المشنقة أو المقصلة أو فرقة الإعدام، وتولى المتطرفون السلطة.

ضعف المعتدلين

هناك مفارقة مهمة وهي أنه في المرحلة المبكرة من الثورة تكون السيطرة على الجهاز الحكومي لحد ذاته مصدر ضعف لمن يمسكون لتلك السلطة، ويجد المعتدلون أنفسهم شيئًا فشيئًا يفقدون الرصيد الذي كانوا قد حصلوا عليه كمعارضين للنظام القديم، ويقابلون بالشك المتزايد الذي يربطه أصحاب الآمال على نحو بريء بوضع من يرث العهد القديم، ونظرًا لاضطرارهم إلى اتخاذ

موقف المدافع فإنهم يرتكبون الأخطاء تلو الأخطاء، ويعود السبب جزئيًّا إلى أنهم يفتقرون إلى الخبرة في اتخاذ مواقف الدفاع، إنهم في وضع لا يمكن لغير حكمة فوق البشرية تخليصهم منه.
للمعتدلين في مواجهة معارضة المجموعات الأكثر راديكالية المنظمة ثلاثة اختيارات:
يمكنهم محاولة قمع الحكومة غير الشرعية، أو محاولة السيطرة عليها بأنفسهم، أو تركها وشأنها، وفي الواقع إن سياستهم تدور حول هذه السياسات الثلاث، ويجمعون الواحدة مع الأخرى، وفي تلك الظروف يكون صافي التأثير إنتاج سياسة رابعة تصل إلى التشجيع الإيجابي لأعدائهم.

في كل الثورات الأربع تجد الحكومة الشرعية في المعارضة ضدها ليس أفرادًا معادين وأحزابًا معادية فحسب، بل تجد حكومة منافسة أحسن تنظيمًا وذات موظفين أفضل وتطاع على نحو أكثر، هذه الحكومة المنافسة غير شرعية، إنها حكومة منافسة وليست مجرد نقاد أو خصوم، ولدى حدوث أزمة ثورية ما يتحركون على نحو طبيعي ويحلون محل الحكومة المهزومة.

وحكومة المتطرفين غير الشرعية لا تواجه الصعوبات التي تواجه الحكومة الشرعية، إنما تتمتع بالسمعة التي منحتها الأحداث الأخيرة إلى المهاجمين، إلى من يستطيعون الادعاء أنهم في طليعة الثورة، ولديها مسؤوليات أقل نسبيًّا من مسؤوليات الحكومة، وهي غير مرغمة ولو مؤقتًا على استخدام الجهاز الحكومي البالي، بل على العكس تتمتع بميزة كبرى وهي استخدام الجهاز الحكومي الفعال الذي يبنيه على نحو تدريجي الثوريون.

هناك -أيضًا- ضعف أساسي في مركز المعتدلين، فهم بين مجموعتين: المحافظين الساخطين، ولو أنهم لم يسكتوا، وبين المتطرفين الواثقين الهجوميين.

الفصل السادس

تبوؤ المتطرفين

الانقلاب

ربح المتطرفون معركتهم ضد المعتدلين؛ لأنهم كانوا يضمنون السيطرة على الحكومة غير الشرعية وتحويلها إلى انقلاب حاسم ضد الحكومة الشرعية، ويكمن مفتاح نجاح المتطرفين في احتكارهم السيطرة على هذه المنظمات: الجيش الجديد وكنائس المستقلين، إنهم ينالون هذا الاحتكار بطرد الخصوم النشيطين والفعالين كافة من هذه المنظمات في سلسلة من الصراعات، ويتم أولاً تطوير الانضباط والتصميم ومركزية السلطة التي يتسم بها حكم المتطرفين الظافرين، وتصل إلى الكمال في المجموعات الثورية في الحكومة غير الشرعية، وتبقى السمات التي شكلت الحكومة غير الشرعية سمات الراديكاليين نفسها بعد أن تصبح الحكومة الشرعية.

تنظيم المتطرفين

الشيء الأول الذي يلفت انتباه مراقب المتطرفين الناجحين في الثورات هو قلة عددهم، فلم يزد عدد أعضاء المنظمات التي تولت مهمة ضرب المعتدلين من أقلية صغيرة من مجموع السكان. كان هؤلاء الراديكاليون في كل المجتمعات الأربعة في غاية الوعي، وفخورين بأعدادهم القليلة، كانوا يشعرون حتمًا أنهم بارزون بين مواطنيهم، وأنهم مكرسون لخدمة قضية لا يتمتعون حقًّا بالكفاءة اللازمة لتوليها على نحو واع ونشيط.

إن قلة عدد المتطرفين من أكبر مصادر قوتهم، وتصعب إدارة الأعداد الكبيرة في السياسة كما هو الحال في ميدان القتال، وفي الحياة السياسية للثورة المهم القدرة على التحرك سريعًا لاتخاذ قرارات واضحة ونهائية، والسعي لتحقيق هدف ما بدون اكتراث للترتيبات البشرية المتضررة.

ولهذا الغرض يجب أن تكون المجموعة السياسية النشيطة صغيرة، ولا يمكن خلافًا لذلك

الحصول على التكريس والتصميم، والطاقة والانضباط الضروري لهزم المعتدلين، ولا يمكن مواصلة حمى التطرف في عدد كبير من الناس فترة طويلة على نحو كاف لضمان النصر النهائي، فالجماهير لا تصنع الثورات، يمكن إشراكها في بعض المواكب المؤثرة حالما تنتهي القلة النشيطة في الثورة. المتطرفون ليسوا قليلين وحسب، بل هم متمسكون بقضيتهم على نحو متعصب، ومنضبطون بسبب ميراث من ماضي القمع الذي تعرضوا له.

استخدم المتطرفون مهارتهم المنضبطة في تحقيق الأهداف الثورية، ولقد وضع في المائة سنة الماضية أسلوب متقن في العمل الثوري، وقد نشر الكثير عن هذا الأسلوب الذي هو ببساطة مجرد أسلوب أية مجموعة ضغط ناجحة: الدعاية، حشد الناخبين، السعي إلى التأثير على المشرعين، قتال الشوارع، حرب الأنصار، المقاومة غير العنيفة بأسلوب غاندي، تشكيل الوفود، ممارسة الضغط على القضاة، أعمال الإرهاب المتفرقة من نوع استعمال القار والريش أو زيت الخروع والأساليب الأخرى في تشكيلات متنوعة.

يتبع المتطرفون زعماءهم بإخلاص شديد، وإجماع لا يتوافر بين المعتدلين.

الفصل السابع

عهود الإرهاب والقوة

الإرهاب واللامنتمي

ليس هذا اللامنتمي العادي الشخص المعادي بنشاط، إنه ليس المعتدل الساخط، بل هو ذلك الرجل البسيط الذي يشكل أمثاله معظم المجتمعات، الرجل الذي يقبل عمومًا ما يفعله الآخرون في السياسة والذي سرعان ما يلتحق بالركب، إن الثورة خصوصًا في فترة أزمتها قاسية على نحو رهيب إزاء هذا اللامنتمي.

غير أن ثمة مؤشرات كثيرة في الثورة الفرنسية أظهرت سأم اللامنتمين من ذلك، وأنهم وجدوا في المدى الطويل الطقوس الكاثوليكية القديمة أحب إليهم.

يبدو أن الهوس الثوري بتغيير التسميات يميل كذلك إلى إرباك اللامنتمي وإغضابه، فقد قرر الثوريون الفرنسيون في تصميم اجتثاث كل شيء من الماضي الملوث، فغيروا حتى أسماء الشهور وأطلقوا عليها بالفرنسية الشعرية أسماء أعمال الطبيعة، وتم تغيير أسماء الشوارع والميادين.

الإرهاب والمنتمي

النظير الديني

تبدو الثورة للمنتمي، للمؤمن الحقيقي أنها شيء مختلف للغاية في فترة الأزمة، وتبدأ الثورة تستنزف الكثير منه ويشرع بالإعراب عن التردد والشكوك، ويبدأ الشعور بالملل من المراسم التي لا تنتهي والتفويضات واللجان والمسابقات والمحاكمات، إنه يصبح هو -أيضًا- لامنتميًا، غير أن المخلصين يبقون إلى النهاية، إلى قطعة الخشب التي يوضع عليها رأس المحكوم بالإعدام.

يبدو أن هذا المنتمي يجد في خدمته المخلصة للثورة معظم الرضا النفسي الذي يزوده به ما

ندعوه: الدين.

إن تمييز عنصر العقيدة والطموح الديني في سلوك المتطرف المتحمس لا يعني إنكار الدوافع الاقتصادية، وفي الثورات الأربع تتخذ صراع الطبقات أشكالاً مختلفة مثل النبلاء الإقطاعيين، والطبقة الوسطى، والبروليتاريا، وما إن تبدأ الثورة حتى يصبح لهذه الصراعات الطبقية مرحلة مشتركة واحدة على الأقل في كل المجتمعات الأربعة، تصادر أملاك الكثير إن لم يكن معظم من يشخصون علنًا وبعناد أنهم ينتمون للأحزاب المهزومة، لمصلحة الأحزاب المنتصرة، التي تعد بأنها الشعب، كما أنه إذا تهزم المجموعات المعتدلة المختلفة تصادر أملاكها كذلك عادة بالطريقة نفسها.

الفصل الثامن

ثرميدور

من المستحيل تمامًا القول: إن أزمة ثورة ما قد انتهت مثلاً في الساعة الرابعة والدقيقة الثالثة بعد الظهر في السادس من آب/ أغسطس من تلك السنة، وتزودنا فرصة حقًّا بحالة تكاد تكون دقيقة كهذه، يمكن تحديد تاريخ نهاية الأزمة في فرنسا بسقوط روبسبير في 72 تموز/ يوليو 4971 أو في التاسع من شهر ثرميدور من السنة الثانية من التقويم الفرنسي الجديد، أطلق المؤرخون الفرنسيون مصطلح رد الفعل الثرميدوري على العودة الناتجة والبطيئة وغير المتساوية إلى أزمنة أهدأ وأقل بطولية.

لقد شهد كل من الثورات الأربع الثرميدور الخاص بها، ولو لم يوجد تماثل في أي ثورتين بين سلسلة الأحداث والجداول الزمنية وتقلبات الحياة اليومية.

وفيما يتعلق بمخطط المفاهيم لابد أن نصف ثيرميدور بأنه نقاهة من حمى الثورة على الرغم من أن النقاهة تعني شيئًا لطيفًا، ويبدو ذلك وسيلة لإطراء رد الفعل الثرميدوري.

العفو القمع

التماثل اللافت سياسيًّا والملاحظ في فترة النقاهة هو التنصيب النهائي لطاغية في المعنى الإغريقي القديم للكلمة، أي: حاكم غير دستوري أوصلته الثورة إلى السلطة.

إن الدكتاتوريات والثورات مترابطة ترابطًا وثيقًا حتمًا؛ لأن الثورات إلى حد ما تحطم أو على الأقل تضعف القوانين والتقاليد والعادات والمعتقدات التي تربط الناس معًا في المجتمع، وحتى عندما تربط القوانين والتقاليد والعادات والمعتقدات الناس معًا على نحو غير كاف لا بد من استخدام القوة لمعالجة عدم الكفاية تلك، إن القوة العسكرية لفترات قصيرة هي النوع الأكثر كفاءة من القوة

المتوافرة للاستخدامات الاجتماعية والسياسية، وتتطلب القوة العسكرية تدرج الطاعة برئاسة قائد عام للقوات المسلحة.

عودة الكنيسة

من الطبيعي أثناء تفوق المتطرفين اضطهاد العقيدتين الراسختين الكاثوليكية والبروستانتية على حد سواء، وكان أعنف القائمين باجتثاث المسيحية في ذروة عهد الإرهاب مسيطرين في بعض المناطق، وقاموا بتدمير الكنائس أو تشويهها، وأعدموا القساوسة بالمقصلة أو طردوهم.

مضى التصالح في فرنسا بين الثرميدوريين وبين الكنيسة القديمة سريعًا جدًّا حتى إنه في غضون أقل من عقد واحد من حركة اجتثاث المسيحية في عهد الإرهاب وقع نابليون اتفاقًا مع البابا أعاد تأسيس الرومانية الكاثوليكية بوصفها الكنيسة الرسمية في فرنسا، ومع العفو عن المزيد من المعتدلين اتسم موقف الحكومة بود أكثر، وشهدت فرنسا في السنوات الأربع الأخيرة من القرن الثامن عشر الحرية الدينية التامة والفصل الكامل تقريبًا بين الكنيسة وبين الدولة، وشعر نابليون والكثير من أفراد الطبقة الحاكمة الجديدة بالحاجة إلى كسب الكاثوليك تمامًا إلى صفهم، وجرى التفوض على الاتفاقية الجديدة مع البابا لتنظيم الشؤون الكنسية.

الفصل التاسع

خلاصة عمل الثورات

التغييرات في المؤسسات والأفكار

تنهي الثورة سياسيًّا أسوأ الإساءات وأسوأ حالات الكفاءة في العهد القديم، وتسوي فترة مؤقتة على الأقل نوع الصراع الداخلي الذي تنشأ عنه السيادة الثنائية، ويعمل جهاز الحكومة على نحو أكثر سلاسة بالمقارنة مع الفترة قبل نشوب الثورة مباشرة.

نفذت هذه الثورات كافة باسم الحرية ووجهت كلها ضد طغيان القلة ومن أجل حكم الكثرة، ولقد انطوت هذه المرحلة كلها من الثورات بخاصة على وجود مشاعر مؤكدة في البشر تجعل من الصعب تطبيق وسائل العلم على دراسة البشر في المجتمع، وثمة تشابك فريد بين كل هذه المراحل من الثورات وبين وجود مشاعر معينة في البشر تجعل من الصعب للغاية تطبيق وسائل العلم على دراسة الإنسان في المجتمع، غير أن الأهمية التامة لمسائل مثل الديموقراطية، حقوق الإنسان، الدساتير المدونة، وكل جهاز الحكومة الشعبية تكمن ضمن الحقل الغامض، والمهم الذي يحب الماركسيون تسميته الأيدلوجية، وليس في حقل الوكالات السياسية الراسخة التي ندرسها الآن.

ويدهش المرء حتمًا، إزاء حقيقة أن الثورات الأربع كافة قد دعمت كفاءة الحكومة، وليس حق الفرد في حرية رومانتيكية في أن يكون كما هو.
كما شهدت تلك الثورات جميعًا الكثير من نقل الممتلكات بالمصادرة أو البيع القسري، وشهدت سقوط طبقة حاكمة وتولي طبقة حاكمة أخرى السلطة، على نحو جزئي على الأقل، من أفراد كانوا قبل الثورة خارج الطبقة الحاكمة، ورافقت الثورة مطالبة قوية بإلغاء الفقر والمشاطرة المتساوية في الثروة.

لم تستبدل أية من الثورات الأربع طبقة حاكمة قديمة بطبقة جديدة تمامًا، على الأقل ما لم يفكر المرء في طبقة بدون الاكتراث للبشر الذين يشكلون الطبقة، وما يحدث أنه بحلول نهاية

فترة النقاهة يبدأ نوع من الاندماج يرتبط فيه أفراد مغامرون قابلون للتكيف أو محظوظون من الطبقات القديمة صاحبة الامتيازات لأغراض عملية بأولئك الأفراد من الطبقات المهضومة القديمة الذين تمكنوا من الصعود.

التغيرات الفعلية التي أحدثتها الثورات الأربع هي في الترتيبات الاجتماعية تؤثر على النحو الأشد والأكثر مباشرة في الشخص العادي، وتحاول المحاولات الكبرى للإصلاح أثناء فترة الأزمة تغيير علاقات الإنسان العادي مع وزجته وأطفاله ومنحه دينًا جديدًا وعادات شخصية جديدة، ويتخلى الترميدوريون عن معظم هذ المحاولة، ويكون موقف الشخص في نهاية المطاف من مسائل معينة هو نفسه عندما بدأت الثورة.

إن دراستنا للثورات يجب أن تؤكد أمرًا عرفه العقلاء دائمًا، وأن المصلحين الغاضبين اعترفوا أحيانًا على الأقل لأنفسهم، إن سلوك الإنسان في نواح مهمة يتغير ببطء يكاد يشابه نوع التغيير الذي يدرسه عالم الجيولوجيا.

يبدو أن الثورات الأربع في نهاية المطاف قد أزالت الحدة من الأفكار والشعارات الراديكالية في أيامها المبكرة، وحققت المعجزة الضرورية بحمل الموحين على قبول الإخفاق الواسع لطموحاتهم نحو السماء على الأرض، وحولت ما كانت أصلاً أدوات شفهية للثورة وسائل تحريك الناس للعمل الاجتماعي ضد النظام القائم.

بعض حالات التماثل المؤقتة

تظهر بعض حالات التماثل في دراسة الأنظمة القديمة في إنجلترا وأميركا وفرنسا وروسيا:

أولاً: كانت هذه مجتمعات متقدمة اقتصاديًّا عمومًا قبل نشوب الثورة، ويبدو أن أصل الحركات الثورية في سخط الناس غير ناجحين يشعرون بالتقييد والتشنج والانزعاج وليس القمع الشديد، لا يبدأ هذه الثورات حتمًا المعدومون والجياع والبؤساء، هذه الثورات تنشأ من الأمل وفلسفاتهم تتسم بالتفاؤل النظامي.

ثانيًا: نجد في المجتمع الأمريكي ما قبل الثورة عداوات طبقية شديدة ومريرة للغاية، ولو أن هذه العداوات تبدو أكثر تعقيدًا مما يسمح الماركسيون الأكثر فجاجة، غير أنه يمكن ملاحظة وجود هذه المرارة في المجتمعات الأربعة قبل الثورة.

ثالثًا: هناك ما ندعوه تحول ولاء المثقفين.

رابعًا: الجهاز الحكومي غير كفء على نحو واضح، جزئيًّا بسبب الإهمال، وجزئيًّا بسبب عدم إحداث تغييرات في المؤسسات القديمة، وجزئيًّا بسبب الظروف الجديدة.
خامسًا: الطبقة الحاكمة القديمة أو بالأحرى أفراد كثيرون من الطبقة الحاكمة القديمة أصبحوا لا يثقون بأنفسهم، أو فقدوا الثقة بتقاليد وعادات طبقتهم والنمو فكريًّا وإنسانيًّا، أو التوجه إلى المجموعات المهاجمة.

إن ما يثير الاهتمام في الحالات الأربع كافة هو عدم كفاءة استخدام الحكومات القوة أكثر من مهارة خصومها في استخدام القوة.

يفسر تفشي عهد الإرهاب في فترة الأزمة جزئيًّا بوجود ضرورات ضغوط الحرب والصراعات الاقتصادية علاوة على متغيرات أخرى، غير أن من المرجح تفسيره كذلك جزئيًّا بوصفه مظهر جهد لتحقيق غايات أخلاقية ودينية قوية في العالم، تتصرف المجموعة الصغيرة من الثوريين المتسمين بالعنف الذين يشكلون نواة كل العمل أثناء عهد الإرهاب كما يتصرف الأفراد سابقًا تحت تأثير العقيدة الدينية.

مفارقة الثورة

يبدو من دراسة هذه الثورات أنه يمكن وضع ثلاثة استنتاجات:

أولًا: على الرغم من الفروق المثيرة التي لا تنكر ثمة حالات تماثل بسيطة ومؤكدة من النوع الذي حاولنا ضمه معًا تحت مخطط المفاهيم الشبيه بالحمى.

ثانيًا: تشير هذه الثورات بقوة إلى ضرورة دراسة أفعال الأفراد وكلماتهم بدون افتراض وجود صلة بسيطة ومنطقية دائمًا بين الأفعال والكلمات؛ لأنها في كل مساراتها لا سيما أثناء الأزمات كثيرًا ما تعرض أفرادًا يقولون شيئًا ويفعلون شيئًا آخر.

ثالثًا: إنها تشير عمومًا إلى أنه لا يمكن إطلاقًا تغيير الكثير من الأشياء التي يفعلها الرجال والكثير من العادات والمشاعر والنزعات البشرية على نحو سريع، وأن محاولة بعض المتطرفين تغييرها من خلال قانون الإرهاب والوعظ تفشل وتعيدها النقاهة بدون تغيير.

إلا أن تعميمًا رئيسيًّا واحدًا يربط معًا هذه الثورات الأربع، تبين هذه الثورات الأربع قدرًا متزايدًا من الوعود للمواطن العادي، وعود غامضة من مثل السعادة الكاملة، وقوية من مثل الإشباع التام لكل الحاجات المادية مع كل الانتقام العذب في الطريق.

أما فيما يخص الخبرة التي تمنحها ثورة ما إلى المجتمع الذي يمر بتلك الخبرة فإننا لا يمكن أن نضع هنا استنتاجات على نحو واسع بدون التجاوز على ميادين أوسع في التاريخ وعلم الاجتماع، غير أنه يبدو أن المريض يتعافى من الحمى وهو أقوى في بعض النواحي، ومحصن بهذه الطريقة من إصابات قد تكون أكثر خطورة، إنها لحقيقة ممكنة الملاحظة أنه هنالك عقب كل الثورات في المجتمعات الأربعة جميعًا ازدهار، وقد لا نؤول أخلاقيًّا أكثر مما ينبغي بشأن سخافات الثورات وقسوتها وقد لا نرفع أكفنا هلعين، وربما تظهر دراسة أوسع أن المجتمعات الضعيفة والمتدهورة لا تشهد ثورات، وأن الثورات هي علامة قوة وفتوة في المجتمعات.

مختصر كتاب **تشريح الثورة** كرين برينتن

